# الانقلاب الوشيك

**البروفيسور عبد الستار قاسم**

22/تموز/2006

الحرب الدائرة الآن في لبنان ليست مجرد معركة محدودة تدور على جزء من أرض لبنان التي تتجاوز بكليتها 10،500 كم2، وإنما هي حرب على اتساع الوطن العربي؛ وهي ليست معركة لحظة ووقت معين، وإنما هي حرب تاريخية تتوج زمنا من المعاناة والأحزان والآلام والمخاض. وهي ليست معركة بين حزب الله والكيان الصهيوني، وإنما حرب بين أمة تتجسد في حزب الله وقوى عالمية معادية للعروبة والإسلام تتجسد في إسرائيل. وهي ليست مجرد معركة تنحصر نتائجها بأرباح وخسائر الطرفين المشتبكين، وإنما هي حرب ستساهم بصورة كبيرة في رسم صورة المنطقة لسنوات عديدة قادمة.

ليس من المتوقع أن تحصل تطورات اختراقية إذا انتصرت إسرائيل في هذه الحرب، أي إذا أجبرت حزب الله على التراجع جغرافيا وتسليم أسلحته وإعادة الجنديين إلى ذويهما؛ لكن أشياء كثيرة ستتغير إذا انتصر حزب الله، أي إذا صمد وصبر وأجبر إسرائيل على القبول بالتفاوض حول تبادل الأسرى. ستتغير أشياء كثيرة حتى على مستوى الأوضاع النفسية للمواطن العربي العادي، وعلى مدى رغبة الإسرائيلي العادي في البقاء في إسرائيل التي ستفقد بهاءها الانتصاري. على الرغم من متابعاتي لسياسات حزب الله على مختلف الأصعدة الثقافية والفكرية والاجتماعية والعسكرية والتي تجعلني مطمئنا إلى القول بأنه من الصعب جدا على إسرائيل أن تهزم الحزب، هناك وقائع على الأرض تشير إلى حيرة إسرائيل وارتباكها وإلى اطمئنان حزب الله وتماسكه وقدرته على إدارة الحرب بهدوء وعقل حكيم. رأينا جميعا دقة إصابة البارجة الإسرائيلية الأمر الذي يعتبر تحولا استراتيجيا في الإنتاج العسكري، وشاهدنا عبر الشاشات في معارك سابقة القنابل الذكية التي يملكها الحزب والتي أصاب بوساطتها مواقع إسرائيلية ومعدات. ونحن نلمس الآن تحولا استراتيجيا كبيرا وهائلا متمثلا بتمكن حزب الله من المحافظة على السر وحماية نفسه من الاختراقات الأمنية الإسرائيلية. نخر الإسرائيليون صفوف العرب في كل مكان، ووضعونا، أنظمة وشعوبا وأحزابا وحركات مقاومة، تحت المجهر وكانوا دائما قادرين على ضربنا بدقة. الوضع مختلف الآن من حيث أن إسرائيل عمياء إلى حد كبير ولا تستطيع رصد مواقع أو أفراد حزب الله، وهي تضرب كثور هائج يزهو بعضلاته.

اجتاز حزب الله المرحلة الصعبة دون أن يضطر حتى الآن إلى استخدام كل أسلحته. لحقت خسائر في حزب الله بالتأكيد، لكنه من الأرقام الواردة إعلاميا، يتضح أن خسائر إسرائيل العسكرية، وعلى غير العادة، تفوق خسائر حزب الله؛ وهذه هي المرة الأولى التي تدفع فيها إسرائيل في تاريخها الحربي ثمنا عسكريا أكثر مما يدفع الطرف العربي. إسرائيل الآن في مرحلة الاستفاقة على الذات، وحزب الله في مرحلة توجيه ضربات صعبة لإسرائيل ستجعلها تشعر بمزيد من الترنح.

لم يستنفذ حزب الله مفاجآته من حيث أن صواريخه لم تصل إلى تل أبيب بعد، وأن قدراته في الحرب البرية لم تتكشف، وأنه لم يفصح عن أي تجهيز دفاعي ضد الطيران الإسرائيلي. وحتى لو لم يكن لدى الحزب المزيد من المفاجآت العسكرية، فإنه يستطيع بما بدا لغاية الآن أن يتمم حربا ناجحة تحرم إسرائيل من تحقيق أغلب أهدافها. يكفيه أن معلومات إسرائيل بخصوص تكتيكاته ومواقعه تقترب من الصفر.

سينعكس الإنجاز العسكري حتما على خريطة النشاطات المختلفة على الساحة العربية. بداية سيصبح حزب الله ملك الشارع العربي الذي سيرى في الحزب منقذا من الذل المهين الذي قبع على صدره على مدى سنوات طويلة. ستحاول الأنظمة العربية وحلفاؤها اللعب على حبل الشيعة والسنة، لكن الفساد والإفساد لم يكونا يوما طريقا إلى النجاح. وستتراجع توجهات العرب نحو الحلول الاستسلامية، وسيتم طرح مشروع سلام عربي حقيقي يستند على التمسك بالحقوق العربية، وسيتم لمس هذا بوضوح على الساحة الفلسطينية التي ستشهد خروجا من المرحلة العرفاتية وولوجا في المرحلة الإسلامية–الوطنية. ستعترف الولايات المتحدة ضمنا بإيران كقوة إقليمية، وبسوريا كقوة يصعب تجاوزها، وستعكف كل من أمريكا وإسرائيل على دراسة أفضل السبل لمواجهة هذا التحول الذي يعتبر خطيرا جدا بالنسبة لهما. ستدرك القوى اللبنانية المختلفة أن عليها أن تتعايش في لبنان العربي الذي يحفظ كرامة وحق كل مواطنيه بعيدا عن الإملاءات الغربية والتبعية، وستقبل مختلف القوى بوجود أمني سوري لا يتدخل في سير الحياة العادية للبنان؛ وربما تقتنع هذه القوى بأن لبنان قد أصبح لاعبا عربيا أساسيا لا تستطيع أي دولة عربية مهما علا شأنها أن تتجاوزه من المتوقع أيضا، إذا استمر حزب الله بصموده أن تنتهي الحقبة العربية السعودية، وأن تصبح الشعوب العربية أكثر جرأة على حكامها مما ينبئ بتغيير سياسي حيوي في الأنظمة العربية.

لا بد أن إسرائيل تدرك الأبعاد المترتبة على خروج حزب الله منتصرا في هذه الحرب، فهل ستستعمل قدراتها النووية التكتيكية؟ أظنها لن تفعل في هذه المرحلة بسبب عدم تعرضها لهجوم مباشر يهدد وجودها. لكن الخيار النووي يبقى مطروحا، ويبقى قابعا في رأس المخطط الاستراتيجي الإسرائيلي. وهل ستغامر إسرائيل بدفع قواتها البرية إلى الجنوب مثلما "غامر" حزب الله بأسر الجنديين؟ أمريكا وإسرائيل تدركان خطورة الخسارة، وتدركان أن الخطورة ستصبح أضعافا إذا فشلت القوات البرية. عادة ما يبقى المتغطرس أسير عربدته.

## النصر والانكسار في الحرب على لبنان

**بروفيسور عبد الستار قاسم**

13/آب/2006

تبدو معايير النصر والهزيمة في كثير من الأحيان جلية، ولا تتطلب الجدل أو عناء الاجتهاد. عندما يرفع أحد أطراف الحرب الراية البيضاء فإنه يقر بالهزيمة، ويقر بنصر الطرف الآخر ويقبل شروطه. لكن هذه المعايير تبدو غامضة أو قابلة للجدل عندما تصر أطراف الحرب على مواصلة القتال، وهذا ينطبق إلى حد كبير على الحروب التي تكون حركات المقاومة أحد أطرافها. تدخل أهداف الحرب المعلنة من قبل كل طرف كعامل أساسي في تقدير المنتصر والمهزوم. النصر هو من نصيب الذي يحقق أهدافه، بينما الخيبة تبقى من نصيب من يعجز عن تحقيق أهدافه.

تثور مسألة النصر والانكسار في العدوان الإسرائيلي المستمر الآن على لبنان. من المنتصر حتى الآن: أهي المقاومة الإسلامية أم إسرائيل؟ طبعا تبقى الاحتمالات مفتوحة ما دامت الحرب مستمرة، لكن التقييم الآني يستدعي استحضار معنى النصر لكل طرف. أعلنت إسرائيل مرارا أن هدفها من الحرب هو القضاء على حزب الله كتنظيم مسلح: أي نزع أسلحته وتحويله إلى مجرد

حزب سياسي لا علاقة له بالقتال والمقاومة. غيرت لهجة المطالب خلال الحرب وتحدثت عن إبعاد حزب الله عن الحدود الاستعمارية بين لبنان وفلسطين من أجل إفساح المجال أمام قوات دولية تعمل هي على نزع سلاح حزب الله. تنتهي مختلف الصيغ واللهجات التي تحدثت بها إلى الهدف الأول الذي أعلنته.

بالنسبة لحزب الله، هدفه من الدفاع هو الصمود وإجبار إسرائيل بعد ذلك على تبادل الأسرى. لم يتحدث حزب الله عن تحرير فلسطين ولا عن إلحاق دمار شامل بالجيش الإسرائيلي، وركز تصريحاته على الإرادة الصلبة التي سترد إسرائيل خائبة.

من خلال الأهداف المعلنة، لا يمكن لإسرائيل أن تنتصر إلا بالضربة القاضية إما مباشرة في الميدان أو سياسيا من خلال قبول حزب الله بقرار من مجلس الأمن ينتهي إلى نزع سلاح الحزب.

أما بالنسبة لحزب الله، النصر هو مجرد الصمود الذي يمنع إسرائيل من تحقيق أهدافها ويلحق الخسائر الكبيرة في الجيش الإسرائيلي. حزب الله لا يحتاج إلى ضربة قاضية حتى يعلن النصر، أما إسرائيل فلن تتمكن من الحديث عن انتصار ما دامت يد حزب الله على الزناد وقادرة على إطلاق النار.

المعنى أن تطورات الحرب تشير إلى أن حزب الله هو المنتصر لأنه صامد وقادر، وهو يوقع خسائر كبيرة يوميا في الجيش الإسرائيلي. لم يستطع جيش إسرائيل السيطرة على قرية لبنانية واحدة حتى الآن على الرغم من دخوله بعضها، ولم يستطع أن يستقر في أي بقعة جغرافية حل فيها أو مرّ عبرها. تقول إسرائيل إنها احتلت وتقدمت وتتحدث عن سيطرة على قرى ومواقع، لكن سرعان ما يكتشف المراقب أن الحديث غير دقيق وكاذب. ينطبق هذا على بلدات مثل مارون الراس وبنت جبيل وعيتا الشعب والطيبة. الجيش الذي لا يستقر لا يستطيع أن يدعي الاحتلال والسيطرة، وتبقى المعركة كرا وفرا.

يقول بعضهم إن الخسائر هي المعيار الحقيقي لنتيجة الحرب بين المنتصر والمهزوم. يجادلون بأن الطرف المنتصر هو الذي يوقع الخسائر الأكبر بعدوه، ويتوصلون إلى نتيجة بأن حزب الله هو المهزوم لأن الخسائر الأكبر وقعت في الجانب اللبناني. طبعا هم يعززون جدليتهم بأعداد القتلى والجرحى والمهجرين ودمار البنية التحتية، الخ. وقد قال أحد هؤلاء على شاشة التلفاز بأن حزب الله سيكون منتصرا عندما يصبح عدد القتلى الإسرائيليين مساو لعدد القتلة اللبنانيين.

هذه جدلية لا تميز بين الخسائر ونتيجة الحرب، وليس شرطا أن النصر حليف الذي يوقع أكبر الخسائر بالطرف الآخر. لحقت خسائر ضخمة بشعوب قاومت وحاربت لكنها انتصرت في النهاية على عدوها، وذلك مثل الجزائر في قتالها من أجل الحرية، وفياتنام التي حاربت ضد فرنسا وأمريكا. سقط على أرض الجزائر مئات الآلاف من الشهداء، وخسرت فياتنام من شبابها وشعبها أضعافا مضاعفة مما خسرت الولايات المتحدة. حتى أن حزب الله، في حربه ضد إسرائيل منذ 1982 حتى 2000، خسر أكثر بكثير مما خسرت إسرائيل.

إذا راجعنا تاريخ الثورات والمقاومة، نجد أن خسائر المقاومة والشعب الذي يحتضنها أكثر بكثير من خسائر الدول التي تحتل أو تستعمر. تملك الدول المحتلة جيشا نظاميا وأدوات عسكرية متطورة وكثافة نيران هائلة وإمكانيات مادية تمكنها من التدمير والقتل على نطاق واسع، أما المقاومون فلا يملكون إلا أدوات قتالية بدائية أو بسيطة التطور، ولا يملكون كثافة النيران ويعتمدون أسلوب الكر والفر والكمائن والمباغتة. لكن نتيجة الحرب، وفق المعطيات التاريخية، تُحسم في النهاية لصالح المقاومة.

من الملاحظ أن الدول العاتية تتعمد ضرب الأهداف المدنية وقتل المدنيين والتضييق عليهم في سبل المعيشة والتنقل وممارسة النشاطات اليومية، ذلك من أجل الضغط على المقاومين، ومن أجل

تأليب عموم الناس ضدهم. تحاول دول العدوان حشد الرأي العام المحلي ضد المقاومين عسى في ذلك ما يكسر من إرادتهم القتالية واستسلامهم. كانت تحقق هذه الدول نجاحا في بعض الأحيان، لكن لا أرى أن إسرائيل ستنجح. يملك الشعب اللبناني تجربة زاخرة في هذا المجال ولا أظن أن الآلام والأحزان ستدفعه للوقوف ضد المقاومة.